مع القرآن

عبد الرحمن أبو ذكري

namacenter
namacenter
namacenter
info@nama-center.com

نماء

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

مع القرآن

عبد الرحمن أبو ذكري

مع القرآن

عبد الرحمن أبو ذكري

«إنا صَعُبَ علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به. وإن من بعدنا يسهُل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به».

(عبد الله بن مسعود رضي الله عنه)

تذاكرت مع صديقٍ لي ما روي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه؛ أنه قيل له: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم؛ فقال: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. ثم تحدَّثوا ساعة، حتى إذا أرادوا القيام قالوا: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم؛ فقال: تريدون أن أشقِّق لكم الأمور؛ إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار، فقد آتاكم الخير كله.

ويبدو أن الرغبة في هذا التشقيق، الذي يؤدي إلى التعدّي في الدعاء؛ فطرة في بني آدم، خصوصًا حين يستَبِدُّ الجهل بالقرآن ولغته وشمول معانيه، فيُستبدَلُ الهدي القرآني والنبوي الجامع في الدعاء بما هو دونه من التفصيلات. وكما طلب أصحاب سيدنا أنس تجاوز الدعاء الذي علَّمنا إياه القرآن إلى التشقيق، فإن ذراري المسلمين اليوم يطلبونها ويُلحّون في كل حين حتى يُشقِّق الإمام في الدعاء ويبسط فيه بكلامٍ ما أنزل الله به من سلطان. مُستدِرًا دموع جمهرة المصلين، الذين لا يفهمون القرآن ولا يستطيعون التفاعُل معه؛

اللهم إلا بعض آيات العذاب، نعوذ برحمة الله من عذابه.

والحق أني أعذر ذراري المسلمين في معاناتهم، فقد كنا نَفِرُّ من حلقات حفظ القرآن التي أرسلنا إليها أهلنا على عهد الصبا. إذ كان الكتاب الكريم بالنسبة لنا كلامًا مُطلسمًا لا علاقة له بالحياة. فنحن لا نتحدَّث لغته، ولا نفهمها، ولا تمسَّنا وقائعه، بل ولا نستشعِرُ له وجودًا حقيقيًا ملموسًا في حياتنا اليومية، رغم أن أهلنا ممن يُصلون ويصومون ويتحرّون الحلال ويفرون من الحرام كما يَفِرُّ الصحيح من المجذوم، فما بالك بحال من حُرموا حتى هذا الحد.

وقد أدركت سبب نفوري صغيرًا من حفظ القرآن، رغم حبي الاستماع إليه؛ حين فَهِمتُ معنى ما صحَّ عن سيدنا حذيفة بن اليمان إذ قال: إنا قوم أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن، وإنكم قوم أوتيتم القرآن قبل أن تؤتوا الإيمان. صحيح أن أهلنا كانوا يجتهدون قدر طاقتهم للحفاظ على فطرة الله التي فطرنا عليها بغير تشوّه، وعلى أن يزرعوا في قلوبنا مراقبته سبحانه؛ إلا أن هذا الجهد كان جد قاصِرٍ مقارنة بالجهد المبذول في تلقيننا القرآن عُنوةً. فإنما يحتاج الصبي إلى التخلية بتزكية نفسه حُبًا واختيارًا، قبل تحليتها بالعلم بأمر الله ونهيه. يحتاج إلى دفقاتٍ هائلةٍ من حُب الله والتعلّق به ومعرفة ربوبيته لخلقه وشهود عظمة ألوهيته، ويحتاج مع ذلك إلى الاطمئنان الخالِص لصدق النبي وأن ما جاء به هو الحق من ربه، وهو الهدى والنور والفرقان؛ حتى إذا سمع آيات الله وقعت من قلبه موقعها، وتمكَّنت منه ونفعه الله بها. ومن رحمة الله بخلقه أن الإيمان لا يحتاج لكثير علمٍ، ولا لتشقيق الكلام واللغو في الذات والصفات؛ بل لإدراك الحد الأدنى من المحكمات والاستقامة عليها ظاهرًا وباطنًا. إنها تهيئة للقلب حتى يتلقى القرآن ويهتدي بأنواره، كتهيئة

الأرض للغرس. وقد صار سيدنا سهلًا التُستري من سادة السالكين بوِردٍ سهلٍ علَّمهُ إياه خاله. فشرع يُردِّدُه منذ كان في الثالثة حتى تكاثفت المعيّة في وعيه، وتعلَّق قلبه بالله قبل أن يتلقى كتابه الكريم في السابعة.[1]

كذلك حين أدركني قول سيدنا حذيفة: إنا آمنا ولم نقرأ القرآن، وسيجئ قوم يقرؤون القرآن ولا يؤمنون؛ أدركت أن تعلُّم القرآن ليس هو الإيمان، وأنه لا يثبُتُ لديك وجود الله لتؤمن بقدرته ربًا وحاكميته إلهًا بتعلُّم القرآن، وإنما بحضور القلب والذِكر والتدبُّر في القليل، ثم بإجالة البصر في شواهِد الكتاب المنظور كما يؤثر عن بعض الأعراب.١ بل إن الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة برحمة من الله وفضل، لكن القرآن بلا إيمان لا ينفع صاحبه، وإنما يصمه بالنفاق. وذلك كما وَرَدَ في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن حضرة النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُترجَّة؛ طعمها طيب وريحها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة؛ طعمها طيب ولا ريح لها. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة؛ ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة؛ طعمها مر ولا ريح لها». وربما أدى تعلُّم الصبي القرآن قبل الاهتداء بالإيمان لصدّه عن السبيل، والعياذ بالله. وهو ما قد يصدقه ما روي عن جندب بن عبد الله أنه قال: كنا غلمانًا حزاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتعلمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا، وإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان. ولهذا لا نزداد به إيمانًا، بل ويحتاج ذراري المسلمين لتشقيق دعاءٍ فيه من التعدّي والغثاثة ما فيه،

١- سؤل أعرابي: كيف عرفت ربَّك؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، أفلا تدل على العليم الخبير؟! وهو ليس قياسًا منطقيًا نظريًا بقدر ما هو إدراك فطري سليم لسُنن الكون وآليات عملها.

لتتحـرَّك قلوبهـم حـين تمسَّـها مطالبـات شـؤون حيواتهـم اليوميـة في أدق تفاصيلهـا. ذلـك أن قلوبهـم لا تتحـرَّك لذكـر اللـه وحـده، بـل يجـب أن يكـون هـذا الذكـر موصـولًا بشـؤون معايشـهم وأرزاقهـم وأموالهـم وذرياتهـم.

ولأننـا كُنـا نـؤتى القـرآن قبـل الإيمـان، فقـد كانـت طريقـة تلقيننـا إيـاه فاحشـة الغلـط. مخالفـةً للسُـنة النبويـة في ذلـك، ولهـدي الصحابـة؛ ومـن ثـم مـا زال القـرآن معـدوم الأثـر في حيـوات ذراري المسـلمين، رغـم دوام التغنّـي بـه آنـاء الليـل وأطـراف النهـار. فإنمـا وَرِثنـاه وراثـةً وشربنـاه كالمـاء لم يُجـاوِز تراقينـا، ولم نتعلَّـم حقيقـة العمـل بـه. وقـد روي عـن عثـمان وابـن مسـعود وأُبي رضي اللـه عنهـم أن حـضرة رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم كان يُقرِئهـم العـشر آيـاتٍ فـلا يجاوزونهـا إلى عـشرٍ أخـرى حتـى يتعلَّمـوا مـا فيهـا مـن العمـل؛[٢] فيعلمهـم القـرآن

٢- يقول صاحب الظلال في تأويل قوله تعالى: «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكثٍ، ونزلناه تنزيلًا»:

لقـد جـاء هـذا القـرآن لـيربي أمـة، ويقيـم لهـا نظامًـا؛ فتحملـه هـذه الأمـة إلى مشـارق الأرض ومغاربهـا، وتعلـم بـه البشـرية هـذا النظـام وفـق المنهـج الكامـل المتكامـل. ومـن ثـم فقـد جـاء هـذا القـرآن مُفرقًـا وفـق الحاجـات الواقعيـة لتلـك الأمـة، ووفـق الملابسـات التـي صاحبـت فـترة التربيـة الأولى. والتربيـة تتـم في الزمـن الطويـل، وبالتجربـة العمليـة في الزمـن الطويـل. جـاء ليكـون منهجًـا عمليًـا يتحقـق جـزءا جـزءا في مرحلـة الإعـداد، لا فقهًـا نظريًـا ولا فكـرة تجريديـة تعـرض للقـراءة والاسـتمتاع الذهنـي... وتلـك حكمـة نزولـه متفرقًـا، لا كتابًـا كامـلًا منـذ اللحظـة الأولى.

قلـتُ: وهكـذا ينبغـي أن تُـربى الأمـة مـن بعـد، زرافـاتٍ ووحدانًـا. فـلا يُلقـى القـرآن جملـة في عقـل طفـلٍ (ولا بالـغٍ!) لا يعقِـلُ مـن أمـره شـيئًا؛ فيُضيِّعـه ويصـير بـه كالحـمار يحمـلُ أسـفارًا. بـل مُفرَّقًـا وعـلى مكـث. يُلقـى لأرواح أقبلـت عـلى اللـه ابتـداءً، مُفرقًـا وموافِقًـا لتغـيُّر أحوالهـا ومكابداتهـا التـي لا تنتهـي.

وفي مثـل هـذا المعنـى قـال الزهـري رحمـه اللـه: مـن طلـب العلـم جملـة فاتـه جملـة، وإنمـا يُـدرَكُ العلـم حديثًـا وحديثـين. ووقـد روي أن الحسـن البـصري قـال: إن هـذا القـرآن قـد قـرأه عبيـد وصبيـان لا علـم لهـم بتأويلـه، ومـا تدبُّـر آياتـه إلا باتباعـه، ومـا هـو بحفـظ حروفـه وإضاعـة حـدوده، حتـى إن أحدهـم ليقـول: لقـد قـرأت القـرآن فـما أسـقطت منـه حرفًـا، وقـد واللـه أسـقطه كلـه مـا يُـرى القـرآن لـه في خلـقٍ ولا عمـل، بـل يقـول أحدهـم: إني لأقـرأ السـورة في نَفـسٍ! واللـه مـا هـؤلاء بالقـراء ولا العلـماء ولا الحكـماء ولا الوَرَعـة، متـى كانـت القـراء مثـل هـذا؟ لا كـثَّر اللـه في النـاس أمثالهـم.

والعمل جميعًا. وذكر مالكٌ في الموطأ أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها. وتعلُّم العمل بالكتاب الكريم هو حقيقة معنى التعلُّم في رواية ابن عمر، وهو كذلك فيما رواه مالك أن سيدنا عمر نفسه قد تعلَّم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة. ومن ثم؛ فليس المقصود ها هنا المعنى الاصطلاحي المحدَث للتعلُّم بوصفهِ تحصيلًا نظريًا ساكنًا لا ينفع صاحبه في حياته ولا في آخرته، بل هو التطبيق العملي النافِذ المفعول والمكابدة المخلصة للاستقامة على الأمر الإلهي. وإن «حُفّاظ» القرآن اليوم ليعجبون حين يسمعون أن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: كان الفاضل من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، وكان القرآن ثقيلًا عليهم ورزقوا علمًا به وعملًا؛ وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن منهم الصبي والأعمى والأعجمي لا يعلمون منه شيئًا. لكن الكارِثة أن بعض هؤلاء الحفّاظ والدعاة على أبواب جهنم يحسب أنه بذلك خير من الصحابة أو ند لهم، لأنه «جاوزهم» وملأ صدره علمًا لا يعمل به، لكنه سيُحاسب عليه. وقد قال أحد حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ معاذ بن جبل عليه رضوان الله: اعلموا ما شئتم أن تعلموا؛ فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا. وقد كان المعصوم الذي لا ينطِقُ عن الهوى يتعوَّذ من علمٍ لا ينفع.

هذه المخالفة لسُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم راكمت على أرواحنا غواشٍ جعلت القرآن غريبًا علينا. وما بدأت أقتَرِبُ من رحاب الوحي الإلهي إلا بعد أن أحببت الشعر العربي في مرحلة المراهقة، وشرعت أحفظ القصيدة تلو الأخرى، وألتهِمُ الشاعر تلو الآخر؛ مُستمتعًا مُستجيدًا... بل

ومحاكيًا في محاولاتٍ مبتورةٍ لم تكتمِل. إذ أنضجت صُحبتي لعيون الشعر العربي إيماني بعزَّة الإنسان وكرامته على ربه. حينها فقط بدأ قلبي يَتشقَّق ويُزهِرُ منه الإيمان ليجِد مُراده في القرآن المُعجِز، وراح حاجز الغُربة بيني وبين القرآن يذوب رويدًا رويدًا. كل ذلك رغم أن القرآن لم يَغِب عن بيتنا أبدًا. فقد «حَفِظتُ» ما يَقرُب من نصفه في صباي، وكان أبواي يُرتلانه آناء الليل وأطراف النهار، وفي الأوقات التي يتوقَّفون فيها عن الترتيل كان المذياع يتكفَّل بسد الثغرة. ورغم ذلك كله، كان القرآن غريبًا على نفوسنا كما هو غريبٌ اليوم على ذراري المسلمين بعيدٌ عن أفئدتهم نائية عنه حيواتهم، رغم اعتياد آذانهم وعيونهم له. وإنما اغتربنا عن الكتاب الكريم بضحالة الإيمان التي تقسو بها القلوب، وكان فساد لغتنا حاجزًا إضافيًا. ظلمات بعضها فوق بعض.

وفي مرحلة تالية، لَعِبَ الاطلاع على السيرة النبوية -على حضرة صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليمات- دورًا مُكمِّلًا للشعر؛ فبدأت المعاني اللغوية التي سبر الشعر غورها تكتسِبُ مدلولاتٍ تاريخيةٍ وتكشِفُ عن التصوّرات والأفعال التي ارتضاها الله لعباده، ناهيك عن تصورات الآبقين من أهل الشرك وأفعالهم؛ والأنماط الإنسانية لتحقُّق تلك التصورات جميعًا في عالم الشهود. ومع السيرة النبوية لم يعُد القرآن كتابًا ساكنًا خامدًا في روعي كما كان، ولا صار بيانًا «نظريًا» باردًا لما تعبَّد الله به خلقه فحسب، بل صار حياةً كامِلة. صار حياة كامِلة أراها تتحقق أمامي تاريخيًا في كل آية. حياة موَّارة أبعد ما تكون عن السكون. حياةً مؤمنة تصدُر من الأمر الإلهي، وحياة مُشركة تتفلَّتُ من النهي الإلهي. وقد كان مستحيلًا أن تتكشَّف كل هذه الأعماق الرحيبة في حال القطيعة التاريخية التي كنا نعيشها طوال مرحلة الصبا، رغم النشأة في محيطٍ «مُتديِّنٍ».

وكانت أنضج مراحل الصحبة المتقطِّعة للقرآن مع صاحب الظلال -قُدّس سره- الذي أخذ بيدي إلى القرآن. وقد كنت أظن أول عهدي بالرجُل أنه أَنزَلَ القرآن على واقعي وحياتي (وواقع كل مسلم وحياة كل مسلم تعرَّض لما كتب) حتى صار التنزيل جزءا من هذه الحياة، ثم اكتشفت بعدها أنه كاد يُعيدني -بإذن الله- أنا الفقير الحقير لأحيا في ظلال القرآن كما تفيأ هو ظلاله. وهي حياة جد شاقة ما زلت أتفلَّت منها ولا أقوى عليها رغم أني قاربت الأربعين. إذ أذوق في اللحظات القليلة التي أستقيم فيها كل حينٍ معنى ثِقَل القرآن، وثِقل تعلُّمه، وثِقل العمل به. لكنَّه ثِقَلٌ له لذَّة، وبه تسري العافية في الروح والبدن؛ إن يسَّر الله لك احتمال بعض مشقَّتِها.

وقد توازَى مع هذه المراحِل في تلقّي القرآن وزيادة تركيبية فهمه، مراحِل موازية؛ أكثر عمقًا وارتباطًا بالمكابدات الشخصية والنمو الروحي والعقلي. ففي مرحلة المراهقة تَفتِنُكَ أوصاف نعيم الجنة حين تتكشَّف لك معانيها. ثم تنضج أكثر لتصير أكثر إشفاقًا من أوصاف العذاب وأحوال أهل النار. وفي المرحلتين أنت ضيق الأفق تحسَب أن القرآن محض مجموعة من «الأحكام الفقهية»؛ افعل ولا تفعل. ثم حين يأذن الله بارتقاء سُلَّم النضج درجة أخرى؛ تكتشف أن نسبة آيات الأحكام لا تبلغ أصلًا عُشر الكتاب، وأن هناك أبعادًا أخرى هي التي تصوغ الروح والجسد ويصدُر عنها عمل المؤمن، وأنها هي التي تُضفي المعنى على آيات الأحكام وتمنحها السياق. لتغوص درجة أخرى إلى آيات الاعتقاد. فإذا تريَّثت عندها قليلًا للنظر العقلي قد يتخطَّفك ما يُسمى بـ«علم الكلام»، وهو لغو لا طائل تحته إذ انفصل عن أرواح الذاكرين. فواصِل طريقك داخل الكتاب ولا تلتفِت. ساعتها ستتكشَّف لك الأبعاد الحقيقية للتوحيد، وهي أبعادٌ تتجاوز اللغو الكلامي التافه، والسفسطات الفلسفية المقيتة.

ستشهد التوحيد يبني الأكوان ويملأ من هَدَىَ الله من بني الإنسان؛ فكأن الوجود قَد قُدَّ من صحيح العبودية. عند هذه المرتبة يبدأ الذوق، عندما تُدرك أن التوحيد ليس محض كلمات بارِدةٍ يقذِفُ بها اللسان، وإنما هو نفخة من روح الله تسري في خلقه، والسعيد من هداه الله لها. ستشهد الكون يتحرَّك داخل الكتاب؛ يتحرَّك كله عروجًا إلى الله. يتعثَّرُ الإنسان المكلَّف لكن ما سواه من الخلق لا يتعثَّر. يَضِلُ الإنسان عن غايته ويختار هواه فيسقُط ويتصاغَر، ليبدو التائب الآيب كأنه بطلٌ ملحمي تحتفي بعودته الملائكة. إذ قاتل نفسه في سبيل الله. ها هُنا تستشعِرُ حياة كل الموجودات، إذ تستشعِرُ سلوكها جميعًا إلى الله؛ رغبًا ورهبًا. في هذه الحال لن تستشعِر وحدةً أبدًا، ولو كنت في بطن حوت؛ فإنما أنت سالكُ من بين قوافِل مُمتدَّة تصعد الطريق منذ الأزل. وأسعد السالكين من رضي له ربه تجاوز شعوره سلوك الموجودات إلى استحضار المعية الإلهية. لتتوالى على وجودك آيات يتصاغَر أمامها كل شئ، وتذوق بها المعية، تأمل مثلًا: «ويُسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»، «وسخرنا مع داود الجبال يُسبحن والطير»، «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي»، «وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب»... ستجد أن هذه الآيات الكريمات وأمثالها لا تهُزُّ عالمك الصغير المحدود فحسب، بل هي تُعيد صياغة روحك على الحقيقة؛ فكأنك تولَد من جديد. وقد تُصيبك آية من هذه الآيات مرَّة على غير استعداد؛ فتَخِرُّ صريعًا كموسى الكليم، لتُدرك معنى ثِقل القرآن ولذة الحياة به في آن.

وقد صارت أكثر الآيات تأثيرًا فيَّ بعد أن قطعت بعض المراحِل هي الآيات التي تكشِف حركة الإنسان المؤمن. فإذا كانت آيات حركة الكون في تسليمه مقهورًا شديدة الوطأة، كما في تسبيح الرعد مثلًا؛ فإن الآيات التي

تَـزفُّ الإنسـان الـذي أسـلم مختـارًا أعظـم أثـرًا وأشـد وطـأة. إنهـا الآيـات التـي يتجـدَّد أثرهـا في روحـك كلـما تنزَّلَـت عليـك. فهـذه العبوديـة الصادقـة التـي رفعـت الإنسـان فـوق الرعـد والجبـال، وسـخرتهما لـه؛ جعلـت مـن خضوعـه الإرادي للـه بطولـة ملحميـة ترفعـه فـوق سـائر الموجـودات. صـار عبـدًا ربانيًـا لا إرادة لـه إلا مـا أراد اللـه، وهـذه هـي ذروة القـوة الروحيـة والنفسـية التـي قـد يحوزهـا بـشر. أن ينسـلِخ مـن إرادتـه للـه، ليصـير عبـدًا ربانيًـا كامـل العبوديـة للـه.

ثـم إن عبـدًا مـنَّ اللـه عـلى قلبـه بهـذا التعلُّـق الشريـف بحقيقـة الألوهيـة، ووهبـه برحمتـه وحولـه وقوتـه بعـض القـدرة عـلى المكابـدة للاسـتمداد مـن هـذا المعـين النـوراني؛ أتُـراه ينحـدِرُ إلى سـؤال الـرزق المعـيَّن في اللـوح والمكفـول لـكل ذي روح، أم ينشـغِل بالذكـر وطلـب الهـدى ونُشـدان الرضـا؟[٣]

فـما سـألت اللـه رزقًـا إلا علمـت أني أهـوي إلى الطـين، وأن شـهوات الدُنيـا وهمومهـا قـد أثقلتنـي حتـى نحّيـتُ طلـب الرضـا، وشُـغِلتُ بطلـب المتـاع. ومـا أكـثر مـا أفعـل ذلـك، أسـأل اللـه العافيـة لي ولـك.

٣- وفي الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسألتي؛ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». والله يرزق عباده قبل أن يتعلموا السؤال، سبحانه.